الغيبة وموقعها في سنن التاريخ

حسين السبلاني*

تمهيد:

لا شكّ أن مسألة المخلّص في آخر الزمان - على اختلاف تسمياته في الأديان المتعدّدة - هي من الأمور المهمّة التي تشغل الساحة الفكرية، حيث أخذت حيّزاً كبيراً من الكتابات، وأُلّف حولها مئات الكتب، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أهمية هذا الأمر المطروح.

وربما تكون المذاهب الإسلامية المختلفة مطالبة بتوضيح مبانيها ورؤيتها للمخلّص إلا أن المذهب الشيعي الإمامي مطالب أكثر من غيره بتوضيح نظريته حول المهدي الموعود عجل الله تعالى فرجه الشريف؛ لعقيدته بأنه حيّ غائب، وهذه المسألة قد تُعفى منها المذاهب الأخرى التي تقول بولادته في آخر الزمان.

إذاً المذهب الإمامي يواجه إشكالية الغيبة وما يدور في فلكها من شبهات تطرح، وأسئلة تثار، تجعل كل أتباع المذهب يتحمّلون مسؤولياتهم في الإجابة عنها، ولا أقل فالمسؤولية تقع على علمائهم.

من بين الأجوبة التي تطرح في حل إشكالية الغيبة هو وقوعها وحديث القرآن عنها، وأدل دليل على الإمكان الوقوع، وإذا كانت كذلك فإنها تأخذ صبغتها الشرعية القرآنية، وبهذا ينتفي الاستغراب.

فالقرآن يحدّثنا عن غيبة النبي يوسف عليه السلام عن قومه وابتعاده عن أهله ومعاناته، وقد شرح كامل قصته في سورة واحدة، مذ كان مع أبيه يعقوب وذهابه مع أخوته وإلقائهم له في البئر، وانتهاء بارتقائه منصب حاكم مصر واحتضانه لبني إسرائيل في دولته.

* طالب في الحوزة العلمية - مرحلة االسطوح العليا.

ثم بعد ذلك ذكر لموسى عليه السلام غيبتين عن قومه، الأولى عندما ترك مصر في أول شبابه بعدما قتل رجلا ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1]، والثانية غيبته أربعين يوماً بعد غرق فرعون ونجاة بني إسرائيل ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[2].

وبعد ذلك يتعرض القرآن إلى حياة النبي عيسى عليه السلام ورفعه إلى السماء وغيابه عن أمته إلى آخر الزمان ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[3].

ثم بعد ذلك نجد التاريخ عند التعرّض إلى حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يبيّن بأنه اعتزل قومه في الغار للعبادة والتهجد، ورحيله عنهم إلى المدينة، وتوضيح ذلك سيأتي فانتظر.

فالغيبة عن الأقوام تمّت سواء قلنا بصدق مفهوم الغيبة على تلك الأحداث أو قلنا بأنها أشبه بالسفر، وسواء قلنا بأن بعضها قد حصل في الأرض والآخر في السماء كما في النبي عيسى عليه السلام وهذا يكفي للمفارقة وعدم صلاحية مثل هذه الشواهد لإثبات الغيبة في الأقوام السابقة، أو قلنا بأن النبي موسى لم ينقطع عن أمته، بل تواصل معهم وكان حاضراً بينهم من خلال أخيه هارون النبي المعصوم، وكذلك الإمام تواصل مع أمته من خلال السفراء، فإن هذا التواصل كاف لنزع مفهوم الغيبة عن تلك الأحداث، فإن هذه الأمور لا نريد المناقشة فيها أو التأكيد عليها، بل ما يهمنا هو اعتزال النبي قومه الذي بعث لهدايتهم وإخراجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى رحاب النور الأبهج والصلاح الأكمل، والاختفاء مدّة من الزمن وعدم الحضور بين أبناء الأمّة المبعوث إليها.

بهذا المعنى اعتزال القائد العام للأمّة وتعذّر الوصول إليه فإنّ الغيبة قد تحقّقت ولا يوجد محذور قرآني فيها، وإذا وجد محذور عقلي من باب أنّ النبي له وظائف من حيث التبليغ وصيانة الدين من التحريف وإراءة طريق الهداية لأتباعه وغير ذلك، فإن هذا المحذور سيُحلّ بالتأمّل في وظائف الإمام والنبي الباطنية الأخرى، والحديث عن ذلك يترك إلى محلّه.

ما يهمّنا في هذا البحث أن نسلّط الضوء على موقع غيبة الإمام في سنن التاريخ، فمن

١) القصص:٢١.
٢) الأعراف: ١٤٢.
٣) آل عمران:٥٥.

المسلّم به أن التاريخ تحكمه منظومة من القوانين التي تتميّز بالعلمية والاطراد وغير ذلك من الخصائص إذا توفرت فلا بد من جريان السنة، والحديث عن السنن التاريخية خارج عن محل بحثنا، ولكن السؤال، هل إن غيبة الإمام تنخرط تحت عنوان السنن التاريخية بمعنى أن جريان الغيبة في عصر النبي موسى ويوسف وعيسى ومحمد عليهم السلام يجعل منها سنّة لا بدّ من حدوثها إذا توفّرت أسبابها؟

ولتقريب المسألة نضرب مثالاً: إذا جئنا بكمّية من الحديد من نوع معين ووضعناها على درجة نار محدّدة، ووجدناها تمدّدت بفعل الحرارة، ثمّ كررنا هذه المسألة في أنواع متعدّدة من الحديد ضمن الشروط ذاتها، وكانت النتيجة نفسها، فإنّا نستطيع أن نشكّل قانوناً علمياً مفاده: الحديد يتمدد بالحرارة.

إذاً عند توفّر شروط معينة، وتكرّر النتيجة مراراً، فإنّ هذه النتيجة تعتمد كقانون علمي، الشيء ذاته نقوله في الغيبة، هل هناك ظروف معيّنة كانت تحيط بالنبي وتجعله يغيب عن أمّته؟ فإذا عرفنا تلك الظروف ووجدناها تتكرّر أمكننا القول إنه عندما تتوفّر تلك الظروف فإنّ الإمام أو النبي سيغيب.

من هنا لا بدّ من إطلالة على ظروف غيبة بعض الأنبياء السابقين لنراها هل هي موجودة في عصر ولادة الإمام أو لا؟ وبالتالي هل غيبته سنة أو لا؟

غيبة النبي يوسف عليه السلام

يعرض القرآن قصّة النبي يوسف عليه السلام في سورة كاملة بتفاصيل رائعة، وهي القصة الوحيدة في القرآن التي توجد فيها مثل هذه التفاصيل، فإنّها تعرض بشكل مترابط من أوّلها إلى آخرها، وهذا ما يجعلها تتميّز عن قصص الأنبياء الأخرى التي تجدها مبعثرة في عدد من السور.

عند قراءة قصّة النبي يوسف عليه السلام نجد أنّ إخوته ضاقوا به ذرعاً، وهاج حسدهم وحقدهم عليه، فقرّروا أن يأخذوه معهم ليلعب ويرتع ﴿**أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[٤]، وهذا هو السبب الظاهر، ولكنّهم كانوا يضمرون السوء له، وبالفعل أخذوه معهم ورموه في البئر، وبعد ذلك باعوه بثمن بخس ﴿**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**﴾[٥] وتستمرّ القصّة لتبيّن المكانة العظيمة التي وصل

٤) يوسف: ١٢.
٥) يوسف: ٢٠.

إليها نبي الله يوسف عليه السلام، أثناء غيابه عن أمته بسبب مكيدة الإخوة وإضمارهم السوء له، فهم لمّا أرادوا قتله استنقذته العناية الإلهية من خلال توفير كلّ مستلزمات الحياة، ليعودوا بعد ذلك صاغرين يطلبون المغفرة والتوبة ﴿**قالُوا تَاللَّه لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَ إِنْ كُنَّا لَخاطِئين. قالَ لا تَثْريبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمين**﴾[٦].

النبي موسى عليه السلام وظروف الغيبة:

بشّر الأنبياء السابقون بالنبي موسى عليه السلام، وقد آمن به بعض بني إسرائيل، وكان له شيعة، فهم يؤمنون به تصديقاً لأقوال الأنبياء، ولما يجدونه عندهم في الكتب السماوية، ولذلك يحدّثنا القرآن عن هؤلاء الأتباع ﴿**قالُوا أُوذينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾[٧]. ﴿**وَدَخَلَ الْمَدينَةَ عَلى حينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شيعَتِه وَهذا مِنْ عَدُوِّه فَاسْتَغاثَهُ الَّذي مِنْ شيعَتِه عَلَى الَّذي مِنْ عَدُوِّه فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْه قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبينٌ**﴾[٨]، فهؤلاء الشيعة آمنوا بالنبي موسى عليه السلام دون أن يروا شخصه، هذا إذا ذهبنا بأن معنى الشيعة الأتباع، وإلا قد يكون معناه الذي من قوميته الإسرائيلية.

على أيّ حال، فإن موسى ترك قومه بسبب قتله لأحد الرجال وإصدار فرعون أمراً بقتله ﴿**فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّني مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمينَ**﴾[٩]، فغاب عن قومه مدة ثمان وعشرين سنة،، وهذا ما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قال أي عبد الله بن سنان سمعته يقول: «**في القائم سنّة من موسى بن عمران، فقلت: وما سنّته من موسى بن عمران؟ قال خفاء مولده، وغيبته عن قومه، فقلت وكم غاب موسى عن أهله؟ قال: ثمانية وعشرين سنة**»[١٠].

إذاً، سبب الغيبة الأولى لموسى عليه السلام خوفه القتل، ولذلك خرج من مصر باتّجاه مدين، ولمّا أنهى فترة مكوثه فيها وعاد إلى مصر آنس ناراً في طريق العودة ولكن تبيّن بعدما اقترب موسى منها أنّها وحي من الله كلّفه بدعوة فرعون إلى عبادة الله الواحد الأحد، فرجع موسى إلى قومه ليبلّغهم رسالات ربّه.

٦) يوسف:٩٠ – ٩١.
٧) الأعراف: ١٢٩.
٨) القصص: ١٥.
٩) القصص: ٢١.
١٠) الصدوق،(الشيخ) أبو جعفر محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، لا تاريخ، ج٢، ص ٣٤٠، الحديث ١٨.

وبعد المواجهة مع فرعون وانتهاء الأمر بغرقه ونجاة بني إسرائيل، فإنّهم ما إن تجاوزوا خسف البحر حتى مرّوا على قرية فوجدوا أهلها يعبدون الأصنام ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾[١١] فغضب موسى من كلامهم واتّهمهم بالجهل.

ثم طلبوا منه بعد ذلك أن يروا الله جهرة، فطلب موسى من الله الرؤية بلسان قومه ﴿**قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[١٢].

بعد هذا الفساد الكبير والخلل العقائدي في نفوس بني إسرائيل، خرج موسى من بينهم مخلّفاً هارون قائداً عليهم؛ ليأتيهم بالكتاب السماوي، والشرعة التي تحكمهم، وواعدهم ثلاثين ليلة، فلمّا تأخر عنهم عشر ليال انقلبوا وعبدوا العجل ﴿**وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾[١٣].

وقد ذكر أنّ تفكيك الأربعين إلى ثلاثين وإتمامها بعشر -فلم يقل الله مباشرة أربعين ليلة كما هو الحال في الآية الواحدة والخمسين من سورة البقرة، بل وعد الله موسى في البداية ثلاثين يوماً ثمّ مدّده عشرة أيام أخرى - سببه اختبار قومه في العشرة الأواخر، فإنّه لمّا تأخّر عنهم بعد التاريخ الذي حدّده لهم «**الثلاثين**» انقلبوا وعبدوا العجل بفتنة السامري[١٤].

أسباب غيبة عيسى عليه السلام:

لقد تحدّث القرآن في أكثر من مكان عن قصّة النبي عيسى وأمّه عليها السلام، والمكانة الشامخة التي احتلّها بسبب طهارة والدته وتحمّلها الكثير من المصاعب التي واجهتها من قبل اليهود، وأصبح يُضرب بالسيدة مريم مثال المرأة الطاهرة المعصومة، وبالسيد المسيح الطفل المعجزة الذي خرّ ساجداً، وتكلّم في المهد صبياً ليبرّئ أمّه، ويثبت قدسيته التي ستحتلّ مكانة النبوة.

١١) الأعراف: ١٣٨.
١٢) الأعراف: ١٤٣.
١٣) الأعراف: ١٤٢.
١٤) راجع، الشيرازي، (الشيخ) ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار الأميرة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥، ج٥، ص١٢١.

والذي يهمّنا من هذه القصّة أنّ النبي عيسى عليه السلام لمّا بعث نبياً، وبدأ حركته التبليغية لقومه، حاربه أصحاب المصالح من اليهود، فواجههم بالأدلّة الكافية، ولكن أدرك أنّ جمعاً منهم يصرّون على المعارضة والعصيان ولا يتركون المعاندة والانحراف ﴿**فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ**﴾[١٥] ،فنادى في أصحابه ﴿**قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ**﴾ فاستجاب لندائه نفر قليل، وهؤلاء الذين سمّاهم القرآن بالحواريين ﴿**قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[١٦] وهذا يدلّ على أنّ النبي عليه السلام لا بدّ من فئة تنصره وتعاونه، وقد قدّر عددهم باثني عشر شخصاً خان واحد منهم، وبقي الآخرون.

على أيّ حال لمّا تعارضت دعوة المسيح مع مصالح الكفار من اليهود وبعض من آمن به بداية، قرّروا أن يقتلوه، خاصّة بعدما دعا السيد المسيح على بعضهم فحوّلهم إلى قردة وخنازير، فأصدر كبير اليهود أمراً بقتله، فأحبط الله مكرهم ونجّى نبيه منهم، والله يذكر هذه النعمة الكبرى ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ**﴾[١٧]، ويقول أيضاً: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[١٨].

إذاً، السبب الذي جعل السيد المسيح يغيب عن أمّته، هو تهديده بالقتل، فالظالمون لا يرضون بوجود داعية كالنبي عيسى بينهم، فلكي تتحقّق سعادتهم لا بدّ أن يقضوا عليه، ولكن فشل مشروعهم بأن نجّاه الله، وسيعود عندما تطلبه الأنفس، وتشتاق إليه الأرواح، فلا محيص عن يوم خطّ بالقلم.

النبي محمد صلى الله عليه وآله وغيبته:

إنّ الغيبة بالمعنى الذي أوضحناه سابقاً (اعتزال القائد أمّته وصعوبة الوصول إليه) تحقّقت -أيضاً- في زمن النبي محمد صلى الله عليه وآله، وذلك عندما هاجر من مكّة إلى المدينة، فإنّه بعدما بعث نبياً، وبدأ يعظ الناس ويدعوهم إلى عبادة الإله الواحد، وترك عبادة الأصنام لم يسمعوا كلامه، بل كانوا يلاقونه بآذان صمّاء ويتّهمونه بالسحر والشعوذة والجنون وأنّه شاعر، إلى غير ذلك من الأوصاف، حتّى وصل بهم الأمر نظراً إلى التغيير النوعي الذي أحدثه في نفوس سكّان تلك المنطقة، ممّا يشكّل خطراً على المتسلّطين في ذلك الزمن

١٥) آل عمران: ٥٢.
١٦) آل عمران: ٥٢.
١٧) النساء: ١٥٧.
١٨) آل عمران: ٥٥.

أن يخطّطوا لقتله، ولكنّ الله أيّد نبيّه بنصره، فأنزل وحيه على النبي قائلاً ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾[١٩] فخرج من مكّة تاركاً مكانه أمير المؤمنين عليه السلام وأمضى وقتاً «**مختبئاً في غار ثور ثمّ أكمل إلى المدينة**»[٢٠].

وربّما نستفيد غيبة دورية أخرى للنبي صلى الله عليه وآله في كلّ سنة في شهر رمضان، عندما كان يذهب إلى غار حراء للتهجّد والعبادة، ثم يعود بعد سياحة دينية وتأمّل وتفكّر بعظمة الله وجبروته.

فالنبي صلى الله عليه وآله أيضا كبقية الأنبياء السابقين كان سبب غيبته سعيهم لقتله، ولولا أن تداركته رحمة الله لكان من المقتولين، ولكنّ الله أبى أن يقتل الرسول قبل إتمام الحجّة على الناس أجمعين، وأن يؤسّس لدولة كبيرة وضع معالمها، وسوف تُشاد وتقام في آخر الزمان.

استنتاج:

يمكن القول بعد قراءة مختصرة في حياة بعض الأنبياء التي حدثت الغيبة في تاريخهم، أنّ أسباب غيبتهم يمكن حصرها في أمور ثلاثة:

١- خوفهم من القتل.

٢- حتى يشعر الناس أنّهم بحاجة ماسّة إلى المدد الإلهي بعد أن يستنفذوا تجاربهم البشرية، وكان يتمثّل هذا المدد بالألواح تارة، وبشخص النبي أو الإمام تارةً أخرى.

٣- اختبار أقوامهم لتمييز المؤمن من المنافق.

بعدما تبيّنت أسباب غيبة الأنبياء نعود إلى الإمام المهدي عجل الله فرجه، لنرى هل الظروف نفسها هي التي غيّبته أو لا؟ فإذا كانت ذاتها نستطيع أن نقول: إنّ الغيبة سنّة، إذا توفرت أجزاؤها التي ذكرناها آنفا فلا بدّ أن تتحقّق.

الإمام وظروف الغيبة:

علمت الدولة العباسية أنه سيولد غلام للإمام العسكري يحطّم جبروت المتسلطين، ويقضي على الظلم، وينشر العدل، تماماً كما جرى في عهد النبي موسى عليه السلام عندما بقروا بطون الأمّهات، وفصلوا الرجال عن النساء، خوفاً من أن يأتي المخلّص، فأصدرت الدولة العباسية قراراً بوجوب مراقبة بيت الإمام العسكري، فإذا وُجدت إحدى نسائه حاملاً،

١٩) الأنفال:٣٠.

٢٠) السبحاني، (الشيخ) جعفر، سيد المرسلين، تعريب الشيخ جعفر الهادي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، لا تاريخ، ج١، ص٥٩١.

أُعلمت السلطة، فيُتخذ القرار بقتل الأمّ والجنين، ولذلك خفي أمر حمل الإمام.

وعندما ولد عليه السلام حُرم الشيعة من رؤيته، إلا الخواص القلائل ممّن نالهم التوفيق لرؤية جماله، وهكذا حتّى أصبح عمره خمس سنوات عندما استشهد والده، فظهر ليصلّي عليه، ثمّ غاب غيبته الصغرى التي استمرّت ٦٩سنة، تواصل في فترتها مع شيعته بواسطة سفراء أربعة، وفي سنة٣٢٩هـ بدأت الغيبة الكبرى.

إذاً الخوف الكبير إلى درجة خفاء الهوية الشخصية - وهذا ما قاد أهل العامّة ربما إلى إنكار ولادته - كان السبب في غيبته، فالسبب الأول موجود، أما الحاجة إلى وجود المدد فهو يتمثّل بأنّ البشرية بعدما تعجز عن إيجاد النظام الصحيح الذي يحكمها، والقائد الذي يرشدها ويوصلها إلى كمالاتها، تنفجر بالدعاء والتوسل ليخلّصهم الله من الظلم، فيأتيهم المدد الإلهي متمثّلاً ببقية الله في أرضه، هذا بعدما يكون أتباعه قد مُحّصوا بالبلاء «**يقع شيعته ومحبّوه في زمان غيبته في غاية التعب والمشقّة والذلّة، ﴿ليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾**»[٢١]، فيثبت القليل على منهجه، وتبدأ قيادة ومسيرة جديدة للعالم بعد أفول عهد الظلم، وتتفتق المواهب المكنونة والعطايا المخزونة ليبدأ التاريخ من جديد، وبهذا تكون غيبة الإمام سنّة تاريخية ضمن ظروفها وخصائصها.

الانقلاب العالمي:

بعد قراءة الأسباب التي كمنت وراء غيبة الأنبياء، نجد أمراً مشتركاً بينها جميعاً، وهو أمر جدير بالتأمّل، فعقب كلّ غيبة يبزغ فجر الصلاح والسعادة للبشرية، وكأنّ الغيبة تمهيد لتغيير كوني وعالمي، ولعلّ هذا التغيير أحد أجزاء علّة الغيبة، بحيث تتوق النفوس إلى النموذج الإلهي، والشريعة الربانية، التي توائم بين حاجات الجسد والروح، فتكره النفوس الأديان الوضعية والقوانين الإنسانية، وتلتجئ نحو السماء، وتطلب من الله هدايتها عبر مخلّص يحمل لها ما يحاكي فطرتها، ويصقل ذاتها، ويصفّي كدر معيشتها، فيعود النبي ويظهر الإمام.

وبالفعل هذا ما حدث في عصر النبي يوسف عليه السلام، «**فبعد هذا الفراق والآلام، والمصاعب والأحزان، انكشفت الحقيقة، ونزل المدد الإلهي على نفوس الإخوة المذنبين عفوا من قبل يوسف، وتوبة إلى الله واستغفاراً من يعقوب، ثم بعد ذلك كان الانتقال من حياة البدو إلى حياة التمدّن، ومن كنعان إلى مصر، ومن رعاية الأغنام إلى قيادة المجتمع**

٢١) الأصفهاني، محمد تقي الموسوي، مكيال المكارم في فوائد الدعاء للقائم، منشورات الأعلمي، بيروت، ط١، ٢٠٠١، ج١، ص١٨٦.

البشري، وما كان هذا التحوّل لولا تلك الغيبة الميمونة لنبيه يوسف الذي علّمه تأويل الأحاديث، فلمّا أصبح عزيز مصر وعرّف الله بينه وبين إخوته، أرسل يوسف إلى أهله أن يأتوا مصر» فالبيت الذي لم يخلع أهله عنهم ثياب الحزن والأسى لسنين عديدة، أصبح غارقاً في السرور والحبور فلم يكتموا رضاهم عن هذه النعم الإلهية أبدا»[٢٢].

أما في عصر النبي موسى فبعد عودته من الغيبة الأولى انتصر على فرعون وأنقذ بني إسرائيل، وبعد الغيبة الثانية دمّر العجل وعاقب السامري، وقاد حملة التوبة الجماعية الكبرى في بني إسرائيل على ما قاموا به **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾**[٢٣].

وكذلك في زمن النبي عيسى، فإنه عندما يعود من السماء ويصلي خلف الإمام ويكون معاونا له في إنقاذ الناس من الهلكة وحيرة الضلالة، فإن النبي عيسى له دور كبير في إرشاد الغرب ليؤمن بالإمام، فعندما يظهر الإمام يسعى النبي عيسى إلى عقد اتفاق بين الغرب والإمام حتى يتسنى للناس شيئا فشيئا الدخول في الإسلام، ولكن ينقض الغرب اتفاقيتهم وتبدأ الحرب ويكون من نتائجها أسلمة العالم.

إذاً بعد غيبة النبي عيسى يوجد تحوّل عالمي، فالكلّ يطلب المسيح، فإذا ما ظهر قاد المؤمنين إلى الإيمان بالمهدي الموعود.

وهكذا فإنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعد عزلته يعود مجدداً بهذه الروح العالية، والإرادة المتفانية لإنقاذ الناس من وحول الوثنية، وتبدأ رحلة العذاب الجميل لإخراج أمّته من الضلال، واقتيادها إلى حظيرة الهداية، وكلّ المشاق والمتاعب في سبيل ذلك الهدف لا يعبأ بها «**إن لم يكن عليّ غضب فلا أبالي**». فالنظام الجاهلي العربي في الجزيرة العربية قد تبدّل وامتدّ أثره ليشمل العالم، فتنقلب تلك الصحراء القاحلة إلى واحة تضجّ بالحياة والإيثار والتضحية بعدما كانت تتلظّى لهباً من القسوة والغلظة وانعدام الرحمة.

ثم بعد ذلك كانت غيبة الإمام سنّة تاريخية تمهّد لذلك الانقلاب الكوني، فكان المبدأ برسول الله والمنتهى بحفيده فهما واحد، والحديث التالي يشير إلى بعض أجزاء هذه الوحدة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**المهدي من ولدي، اسمه اسمي، كنيته كنيتي، أشبه الناس بي خلقاً وخُلقاً**»[٢٤].

٢٢) الشيرازي، (الشيخ) ناصر مكارم، قصص القرآن مقتبس من تفسير الأمثل، إعداد: السيد حسين الحسيني، مؤسسة أنصاريان، قم، ط٢، ٢٠٠٤، ص١٧٧.

٢٣) البقرة: ٥٤.

٢٤) مرجع سابق، كمال دين وتمام النعمة، ج١، ص٢٨٦، الحديث١.

وربّما هذا التغيير هو الأكبر من نوعه من جهة انتشار الإسلام بعيداً، وكثرة مناداة الناس بالنظام العادل وكرههم للأنظمة الحالية بعد انتشار القتل وتمنّيهم للموت، قال أبو عبد الله عليه السلام: «**لا بدّ أن يكون قدّام القائم سنة يجوع فيها الناس، ويصيبهم خوف شديد من القتل، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، فإن ذلك في كتاب الله لبيّن، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾**[٢٥][٢٦]»، ويعاني المؤمنون الكثير من التعب والمشقّة والإذلال، فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**لا تنفكّ هذه الشيعة حتى تكون بمنزلة المعز لا يدري الخابس على أيها يضع يده، فليس لهم شرف يشرفونه، ولا سناد يستندون إليه في أمورهم**»[٢٧].

بعد هذا القهر والاستبداد ينبلج الصبح بعد الليل، والنور بعد الظلام، والاطمئنان بعد الارتياب، والإيمان بعد الكفر، ولم يمرّ على البشرية مذ خلق الله آدم حتى قيام الساعة أيام كتلك الأيام التي تحمل السرور والخير والطاعة والكمال في عصر حضرة إمام الزمان، روى المفضّل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إن قائمنا إذا قام أشرقت الأرض بنور ربّها، واستغنى الناس عن ضوء الشمس، وذهبت الظلمة، ويعمر الرجل في ملكه حتى يولد له ألف ذكر لا يولد فيهم أنثى، وتظهر الأرض كنوزها حتى يراها الناس على وجهها، ويطلب الرجل منكم من يصله بماله ويأخذ منه زكاته فلا يجد أحداً يقبل منه ذلك، استغنى الناس بما رزقهم الله من فضله**»[٢٨].

التغيير النوعي:

عندما أدرجنا في أسباب الغيبة الخوف من القتل فإنه برأيي ليس سبباً مجرّداً، بل إلى جانبه أسباب أخرى، فلو كان سبباً وحده، وعلّة بمفرده، للزم منه أنّ كلّ إمام أو نبيّ يخاف القتل فلا بدّ أن يغيب، وهذا غير صحيح، وتاريخ أئمّة الحقّ خير شاهد على ذلك، فإنّنا نجدهم يخافون القتل ولكنّ الغيبة لم تتحقّق، بل كانوا يواجهون الظالمين حتى لو استلزم ذلك قتلهم.

إذاً الخوف بالمعنى المذكور لا بد من تقييده بقيد «**الخوف من القتل قبل التغيير**

٢٥) البقرة:١٥٥.

٢٦) النعماني، محمد بن ابراهيم، كتاب الغيبة، منشورات أنوار الهدى، إيران، ١٤٢٢هـ، ط١، ص٢٥٩.

٢٧) المجلسي، (الشيخ) محمد باقر، بحار الأنوار،مؤسسة الوفاء، بيروت،ط٢، ١٩٨٣، ج٥١، ص١١٤.

٢٨) المفيد، (الشيخ) محمد بن محمد بن النعمان، الإرشاد في نعرفة حجج الله على العباد، دار المفيد، بيروت، ط٢، ١٩٩٣، ج٢، ص٣٨١.

الكوني والعالمي»، وقبل إتمام المهمّة، فربّ مهمّة نبي أو إمام تنتهي بقتله، ولكنّ هذا القتل بذاته يولّد التغيير الكبير، وما قتل الإمام الحسين عليه السلام إلا شاهد حيّ ماثل أمامنا، ما زالت دماؤه تفور ضد الظلم وتغلي ضد الطغيان حتى أتت على عروش الظالمين فأطاحت بها، ولكن الإمام المهدي عجل الله فرجه وقبله الأنبياء المذكورون سابقا كان دورهم الريادي يتألّف من حلقات متواصلة إحدى هذه الحلقات الكبرى هي الغيبة التي تمهّد لهذا الانقلاب الكوني، والرحلة الجماعية العالمية نحو الكمال وتحقيق الأهداف.

خاتمة:

إنّ التاريخ والحديث عن نهايته في آخر الزمان ما هو إلا تعبير عن الاضطراب الذي يتغلغل في نفوس الناس، بل لا بدّ من القول إن بداية التاريخ الإنساني الحقيقي ستبدأ بظهور المهدي بعد غيبته، الذي يقود العالم إلى رحاب الخلافة الإلهية، وما التاريخ بسننه إلا شاهد على ما نقوله، فيوسف وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام عادوا وقد حقّقوا جانباً مهمّاً من الصلاح والفرح والسرور، وما المهدي عجل الله فرجه في آخر الزمان إلا صورة جامعة لكلّ الأنبياء السابقين، والدولة التي ستشيّد على يديه هي تلك الدولة التي سعى كلّ العظام إلى تشكيلها، وقد ساهم كلّ واحد منهم - بحسب استطاعته وقدرته - في بنائها، ولكنّ المخلّص ستجتمع عنده أسباب الأوّلين والآخرين، وينهض بالإنسان حيث الشرف والسمو والكرامة والعلوّ.

حقاً إنّها اللحظات التي تستحقّ الانتظار، وما الغيبة إلا مرحلة تمهيدية لتلك الأيام الآتية، أملاً بالمستقبل الواعد، وإشراقة على الزمن القادم «**ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً**» ﴿**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾[٢٩].

٢٩) القصص: ٥.

طاووس أهل الجنة
المهدي
عجل الله تعالى فرجه الشريف